التعازي الحسينية في أيام عاشوراء*

(at-Taʿāzī and Good Friday: A Comparative Study)

فاروق أوهان

ماذا في التعازي

١ – إن هذه الاحتفالية المسرحية، الدينية، الاجتماعية، السياسية والشعائرية، والتي ترسخت في الضمير الشعبي، وارتبطت في الأيام العشرة الأولى من السنة الهجرية، وبذلك تدعى "العاشوراء" فهي تكريس لإعادة أحداث المآسي "الحسينية" عندما جاء أعوان يزيد بن معاوية ليمنعوا دخول الحسين بن علي "رض" واتباعه إلى مدينة الكوفة ومحاصرتهم في منطقة لا يصل إليها الماء. ثم أعملوا التقتيل والذبح فيهم بعد المهلة. ثم قتلوا الحسين، وذلك في اليوم العاشر من الحصار.

٢ – وفي هذه الشعائر التي تقام في الأيام العشرة تتلى السيرة الحسينية وتروى مساقات أحداثها خصوصا في الأيام التسعة الأولى وذلك في المحافل الدينية، و"الحسينيات" المقامة في كل بلد وفي أكثر من حي من البلد نفسه. كما تجري مراسيم اجتماعية لها رموزها ودلالاتها والتي انعكست من التأثير الديني. واتصلت كثيرا حتى في التحريم والتقديس اللذين برزا حتى في العادات الاجتماعية. وعلى مختلف المستويات تصل إلى حد نوعية الطعام، والحلوى والملبس. ويتلو العشرة أيام أربعين يوما من الحزن يلبس الصغار والنساء فيها السواد.

٣ – إن المرور في مسيرة أحداث السيرة، خصوصا في تلك الأيام، لا يجعل مجالا للشك في مدى التأثير الوجداني للسيرة الحسينية لدى الشعب في الحياة العامة. وذلك في الطقوس المواكبة يوميا وفي جماعة المحتفلين من الحاضرين للحسينية. هذه السيرة التي يقابل أسلوبها أسلوب سرد السير

---

* الدراسة لا تختص بالجوانب الدينية، لأنها تحترم كل معتقد، وعقيدة. ومن جهة ثانية فإننا ننوه لأن كل ما جاء في الدراسة ينضوي تحت مبادىء البحث العلمي البحتة.

THE ARABIST. BUDAPEST STUDIES IN ARABIC 8 (1994)
https://doi.org/10.58513/ARABIST.1994.8.10

الاجتماعية والوطنية في الأيام الاعتيادية فهذا التوحد الوجداني الجماعي بقيادة راوي السيرة والمداح الديني يتجاوب معه ذلك النشيج الجماعي للتعبير عن المهمة الأساسية عند إعادته للردات المحفوظة عن ظهر قلب والتي تتوافق على إيقاعات ضرب الصدور بالآكف في سمفونية دينية جماعية يغلب عليها التوحد الوجداني ويغلفها التحسر على الشهداء والمغدور بهم في هذه الواقعة. وذلك يتجاوب أعمق وأكثر من أية سيرة أخرى. لأن موضوع هذه السيرة يخص الوجدان الداخلي المتصل بالخلاص المفقود والمرتقب دوما.

الراوي الديني

إن قارئ السيرة الدينية هذه التي يطلق عليها وعلى مكان إقامتها وحتى طقوسها لفظ "الحسينية". أو "التعازى الحسينية" يعتمد الأدوات الصوتية وفنون اللغة وفن الخطابة وفنون الإلقاء والرواية من جهة وفن الإشارة والتلويح من جهة أخرى. ففي الأولى يرتكز قرائ السيرة على فرعين:

- الأول ما يختص باللغة ومجالات إتقان فنونها. من حيث البلاغة والتشبيه وترادف الحروف في نهاية الجمل لابتكار لحن يقترب من القوافي أولا. أو التركيز على مخارج الحروف، والتثبيت والاعتناء بصياغة الجمل حيث ردود الأفعال المرادة من جهة، أو التلحين والتجويد من جهة أخرى. أما ما يختص بفن الصوتيات فهو متعلق بالدرجات والطبقات وشدة الصوت والبراعة في استخدامها.
- أما في فن الإشارة والتلويح كطرف ثان: فإنه يُعضّد عمل الراوي المنشد، والمداح. لأنه يرافق أدوات اللغة التعبيرية من جهة. ورود أفعال الجمل المتوحدة، فيزيل. أو يلغي. أو يوفق وينظم إشارته مع الردات والضربات والايقاعات من جهة ثانية. إضافة إلى حُسن التعبير التلميحي والإيمائي عند الإشارة إلى الأماكن وأسمائها، والشخصيات ومواقفها. ولأن الراوي المفرد أثناء وصفه لحدث، أو موقعة، أو موقف بين طرفين أو أكثر. يمثلها صوتا، وتلميحا. وإشارات وحوارات متتالية ومتعاقبة تتخللها تعقيباته الوصفية، وهكذا.

عاشوراء والجمعة الحزينة

١ – إن هذه السيرة التي عاشت من الألف السادس الميلادي ولا تزال، قوامها وديمومتها ذلك الواعز الديني المتأصل داخل الفرد. وكأنما يريد هؤلاء المؤمنون إبعاد. أو تنحية الحادث الأليم عن ذاكرتهم الجماعية. أو مسحها من مخيلتهم. لذلك تجري الطقوس في الأيام العشرة كلها في إطار ديني تتخلله مظاهر احتفالية وأخرى مسرحية تمثيلية إضافة إلى الخطابة والفروسية. فتقام المسيرات على شكل مواكب تشارك فيها مختلف الجهات التي جاءت لهذا العزاء. وتسير في المدن الكبرى وبخاصة كربلاء والنجف والكاظمين في بغداد. أما فيما تبقى من المدن نفسها فإن المشاركين يقيمون مواكبهم وحسينياتهم أيضا، وذلك حسب تسلسل أيام التعازي العشرة. ولا يبتعد هذا كثيرا عما يقام في الدول التي يغلب فيها الطابع الشعائري على العادات. خصوصا إذا ما كان هناك نسبة مقبولة من الطائفة الشيعية أو غالبة على نسبة السكان من الطوائف الأخرى كما في البحرين وإيران وباكستان على سبيل المثال. وإلا فإن هذه المظاهر تكون رمزية وقليلة. تقتصر عادة على زيارة الأضرحة كما في سوريا على سبيل الحصر.

٢ – وقد أرجع بعض الباحثين أصول هذه الطقوس إلى الاحتفالات شبه الوثنية التي كانت تقام "لأدونيس" أو الديانات "الزرادشتية" أو غيرها. لكنه في الحقيقة وكما يعلمنا الثقاقف والتبادل المتوارث للطقوس في المنطقة وخصوصا في وادي الرافدين فإن جذور هذه الاحتفالات ترتبط بالمراثي "السومرية" مثل مراثي "أور" على سبيل المثال، أو الاحتفالات "الدموزية" في البحث عن الإله "تموز"، من قبل الإلهة "عشتار". ويكون الشبه قويا في اليوم العاشر. أي يوم المقتل، عندما تتوافد الجموع على مركز المدينة على شكل مواكب، حتى تصل إلى الحسينية. وذلك بحد ذاته غير بعيد ربطه بيوم الجمعة الحزينة المشرقية، التي كانت ولا تزال تمارس أيضا في العراق جنبا إلى جنب مع الطقوس الإسلامية في موسم الربيع كما هو معروف. ولِست جمع متتالية تعقبها الجمعة العظيمة أو الحزينة بدلا عن الأيام العشرة المتصلة في السيرة الحسينية. فهي سبع جمع الصوم الكبير عند المسيحيين تمثل الجمع الست الأولى تمهيدا للشعب الصائم الذي يسير دائرا مع المسيح الحامل لصليبه في درب الآلام ليصلوا بجموعهم معه إلى جبل "الجلجلة" المفترض. ومن خلال تسابيح وصلاوات تتناوب ما بين حاملي الصليب والكاهن الدائر معهم أمام أربع عشرة صورة. هي مراحل الدرب التي تركب ذكرياتها الراسخة في الذاكرة الجمعية المسيحية المشرقية. وبعد أن

يعلَق المسيح على الصليب في كل من الجمع الست تعود جموع الشعب الصائمة إلى بيوتها على أمل العودة في الجمعة التي تليها حتى موعد الجمعة "السابعة" الحزينة وتسمى أيضا جمعة الآلام. فبعد اكتمال دورة المراحل الأربع عشرة في هذه الجمعة الأخيرة، تكمل مراسم الصلب والدفن وذلك بإنزال الصليب بدلا عن الأصل. ووضعه في نعش يطوف المحتفلون به، وقد وضعت زهور فوق الصليب في النعش نفسه. ثم يقوم الشعب بتوديع المصلوب إلى مثواه الأخير الذي يحدث في نفس الوقت تقريبا وفي كثير من كنائس البلدة الواحدة. وهذا ما يحدث في نفس الوقت تقريبا، وفي كثير من كنائس طوائف البلدة الواحدة. في كل من سوريا والعراق وفلسطين ولبنان ومصر والأردن والسودان و غيرها من دول الشرق العربية أو غير العربية مثل إيران وتركيا. وعلى مختلف طوائفها المسيحية الكاثوليكية من كلدان وسريان وروم وأرمن وأشوريون وأقباط، ولكن ببعض الاختلافات الجزئية لكل قومية لغة وطقسا وفعالية.

٣ – على أن هذا الطقس ليوم الجمعة العظيمة هو الوحيد الذي يكون متصلا بما قبله وما بعده خلال أيام الأسبوع التي تبدأ منذ يوم الأحد. ففي اليوم السابق أي عشية ليلة الجمعة الحزينة. أي يوم خميس الفصح ذكرى توديع المسيح لتلاميذه الاثنى عشر، بعد العشاء الأخير "العشاء السري". يقوم الكاهن باختيار اثنى عشر فردا من الأمة، إما صغارا أو شبابا ليقوم بغسل أرجلهم دلالة على تواضعه، كما فعل المسيح أيامها. وتتلى في هذا اليوم الأحداث التي مرت بعد العشاء. ولا يمر يوم الجمعة إلا والكنائس وما فيها من إيقونات وتماثيل قد تكللت بالسواد. في حين يكون الشعب الصائم قد حزن هو الآخر. واقتصر طعامه على الحبوب المسلوقة. وقد انقطع عن الزفرين ولا يفرح إلا ما بعد الثانية عشر من مساء يوم "سبت النور". وهو صباح اليوم الثالث "الأحد" الذي يقوم فيه المسيح كما يؤمن به المسيحيون.

أسبوع الآلام يبدأ بأحد الشعانين[1]

وفيما يلي وصف لمشاهدات، ومعايشات عيانية للأسبوع الأخير في الصوم الكبير للمسيحيين، وهو في الحقيقة الأسبوع الأخير في حياة المسيح، ويبدأ بيوم لأحد" يوم أحد الشعانين"، وينتهي يوم أحد القيامة، ففي يوم الأحد، أي الأحد الأخير في الصوم الكبير يكون هو موعد دخول المسيح إلى أورشليم "مدينة السلام"... تقوم الجماعات

---

١) ويدعى أيضا أحد السعانين.

المسيحية، وبخاصة الكاثوليكية في البلدان العربية، والشرقية بإعادة هذه المراسيم. وغالباً ما تتم مباركة سعف نخيل السعانين في ساحة الكنيسة من خلال مراسيم تجري بين الكاهن والشعب، بتراتيل توزع تعليماتها، وكلمات مدائحها على الشعب ... فيبدأ الكاهن بقوله:

ك - لنباشر مع الكنيسة كلها، الاحتفاء بسر المسيح الفصحي، ابن الرب الذي أتى إلى أورشليم، مدينته المقدسة، ليتم بذلك السر بآلامه، وموته، فلنسر إذن وراءه.

ويبارك الكاهن بهذا سعف النخيل، بقوله:

ك - قدس ببركتك "يرسم علامة الصليب" هذه الأغصان، لنسر على خطوات المسيح الملك متهللين ... ونبلغ إلى أورشليم الأبدية "ويقصد هنا دار السلام الأبدية، ربما الجنة". ومن بعد ذلك تبدأ مراسيم كل قداس إلهي في يوم الأحد، وفي يوم خميس الفصح، والجمعة "العظيمة" الحزينة، وأحد القيامة، وأحد الصعود، وأحد العنصرة كما يتكرر ذلك في كل أحد من آحاد السنة، وهو في السياق التالي: -

١ - قراءة الرسالة الأولى: وهي فصل من رسائل الرسل. أو المزامير.

٢ - قراءة الرسالة الثانية: ويتكرر فيها ما جاء في الرسالة الأولى، ولكن بما يكّملها. أو يضيف إليها معنى جديد مطلوب.

٣ - الإنجيل المقدس.

٤ - خطبة الكاهن: حول موضوع المناسبة. أو موضوع الإنجيل لذلك القداس .. وتقرأ قبلها وبعدها أفعال الإيمان، والتوبة، والندامة.

٥ - التقدمة. أي الرفعة .

٦ - المناولة .أي مناولة جسد ودم المسيح "الخبز والخمر" للشعب الطالب للغفران وترتل أثناءها، وفيما بينها كلها التراتيل، والأدعية، والأناشيد المحلية، تكون في طقوس بعض الكنائس الكاثوليكية بألحان غربية، لكن ألحانها في طقوس الكنائس الشرقية، مشرقية صرفة .

وغالباً مايؤخذ في كل من الرسالة الأولى، مَثَل من العهد القديم، يشابهه مثال في صفحات العهد الجديد من أعمال الرسل. أما موضوع الإنجيل فهو عموما عن سيرة المسيح.

وهنا في أحد الشعانين:

ففي قراءة الرسالة الأولى غالبا ما يشار إلى فصل من بشارة القديس "متى" البشير [٢١، ١ - ١١] عندما دخل المسيح أورشليم على جحش، وآتأن يتبعها مديح فيه ما يتضمن الآتي" ..

- قولوا لابنة صهيون:

هوذا ملِكُك قادما إليك
وديعا راكبا على أتان
وجحش ابن أتان

وتنشد جموع الشعب في الكنيسة مديح يتلائم، ودخول المسيح لأورشليم، يمثل استقبال "شعب أورشليم" للمسيح بأغصان الزيتون، وقد فرشوا الأرض بسعف النخيل وهو يهتف:

حيوا ابن داؤد
تبارك الآتي باسم الرب
هوشعنا في العلى.

وتنشد الجموع أثناء الطواف في ساحة الكنيسة أيضا مقاطع من مزامير داؤد التي يكون مطلعها الآتي:

للرب الأرض وملؤها
الدنيا وكل الساكنين فيها
هو على البحار أسسها
وعلى الأنهار هيأها.
من يصعد إلى جبل الرب
ومن يقوم في موضع قدسه
إلى .....
ارفعي أيتها الأبواب رؤوسكم
وارتفعي أيتها الأبواب الدهرية
ليدخل ملك المجد.
من هو هذا ملك المجد
رب القوات هو ملك المجد ..... إلخ.

وتتم بعد ذلك التسابيح، والأناشيد. ثم يبدأ القداس الإلهي، حسب السياق "آنفا".. وتترك الأيام الأربعة التالية دون احتفالات تذكر، لأن المسيح في هذه الأيام الأربعة كان قد التقى بالشعب في أورشليم، وأجرى كثير من الأعاجيب، ومنها أعجوبة تكاثر السمك والخبز [مرقس ٦: ٥٣ - ٤٤] والتقى الأحبار في هيكل لينشر تعاليمه بين الشعب، ويناقش في أمور الدين خلالها.

نلاحظ هنا التمهيد في هذا الإحتفال الشعبي، سواء في ساحة الكنيسة. أو شوارع المدينة، فيما لو كانت المدينة للغالبية المسيحية، كما في لبنان، وقرى سورية، وشمال العراق. فإن الإبتهاج يتعدى الاحتفال الديني الشعبي إلى طقس الكرنفال، في نوع

الملبس، وحمل الشموع "بطول الصبي الصغير"، وعمل الحلويات الخاصة بهذا العيد فهي مراسيم متداخلة التعابير بين فعل التعبّد، وفعل التشبّه بالشعب الذي عايش المسيح المنقذ، واستقبله آنذاك.

الفصح المسيحي

وما أن يأتي مساء يوم الخميس، وهو خميس الفصح، ويسمى لدى المسيحيين خميس الأسرار أيضا. أو عشاء الرب، فإن سياق الاحتفال يتم هو الآخر من خلال القداس الإلهي. حيث يُقرأ نموذج من سفر الخروج [١٢، ١ - ٨، ١١ -١٢] في الرسالة الأولى، ويُقرأ في الرسالة الثانية فصل من رسالة القديس بولس الرسول الأولى إلى أهل "قورنتس" [اقور : ١١ ٢٣ - ٢٦] مثلا. ومن الإنجيل يُقدم فصل من بشارة القديس يوحنا الإنجيلي البشير [١٣: ١ - ١٥] فيها وصف تفصيلي لأحداث يوم الخميس وكيف قام المسيح بغسل أقدام تلاميذه، وموقف تلميذه بطرس الرافض. وبعد الخطبة الشارحة، والدالة لمعاني هذا الطقس، يقوم الكاهن هو الآخر بغسل أقدام إثني عشر شابا من أبناء الشعب، ويقبّلها بعد غسلها بالتتالي، وذلك أثناء تراتيل مثل هذه التي تبدأ باللازمة التالية:

"إني أعطيكم وصية جديدة: -
أن يحب بعضكم بعضا كما أحببتكم" - تقول: -
"الرب قام من العشاء، ثم صب ماء في مطهرة-
وأخذ يغسل أقدام تلاميذه: تاركا لهم هذه القدوة
قال سمعان "القديس بطرس فيما بعد" ليسوع:
رب ! أأنت تغسل قدميّ -
فأجابه يسوع:
"إذا لم أغسل لك، فلا حظّ لك معي".... إلخ.

وهنا يكون الطقس تمثيلا، وتشبيها خاصا، يلبس فيه الأشخاص الذين يمثلون التلاميذ الإثني عشر ملابس بيضاء. ويكونوا قد اغتسلوا، فنظفوا أجسادهم من الخارج، واغتسلوا داخليا عندما مارسوا سري الإعتراف، والمناولة. فأصبحوا أطهار أنقياء تعتمل في دواخلهم هواجس عديدة بين الإيمان. أو التباهي أمام الناس، والأقرباء، والأحباء. ومن جهة ثانية فإن نظرة الناس إليهم تتسم بالوقار، والتقدير على اعتبارهم نخبة مزكاة من بين الرعية، لختارها الكاهن كما اختار المسيح تلاميذه وقتها. ونلاحظ بوجه خاص، أن الكاهن يتلبس شخصية المسيح، فيردد كلامه، وهو يقوم بفعل غسل أقدام التلاميذ. بينما يكون التلاميذ قد حفظوا ديباجة أدوارهم، وبخاصة من أُختير لدور "سمعان" الذي يردد كلام القديس بطرس أعلاه.

الجمعة السابعة، الجمعة الحزينة

وفي يوم الجمعة العظيمة من آلام المسيح، وبعد اكمال درب الصليب ذي الأربع عشرة مرحلة، "كما جرى في الجمع الماضية الست من الصوم الكبير" تبدأ احتفالات جمعة الآلام الكبيرة بالمراثي، حيث تقرأ مراثي من إرميا النبي [٢: ٨ - ١٢] مثلا، ويسبقه تقديم على النحو التالي:

ك - اذكر مراحمك يا رب، وتنازل فاحرسنا، وقدسنا دائما، نحن عبيدك الذين أنشأ المسيح من أجلنا سر الفصح المقدس، بسفكه دمه الزكي، هو الحي المالك إلى دهر الدهور.

ش - آمييين.

ويقرأ الكاهن إنجيل الآلام، وهو ربما أطول إنجيل يُقرأ في احتفالات إلهية "قداديس" لأنه يستعرض آلام المسيح منذ القبض عليه، وحتى صلبه، وموته، مرورا بالتحقيق معه من قبل "حنّان. أو حاننيا"، و"قايافا" المحققين اليهود، إلى مقابلته ل"بيلاطس البنطي" الوالي الروماني لمدينة أورشليم، ثم ترحيله إلى ولاية "هيروديا" التي جاء منها لكي يحاكمه فيها واليها "هيرودس"، ثم بعودته من جديد إلى بيلاطس لكي يتم تسليمه إلى الشعب لكي يصلب، بعد أن يكون بيلاطس قد برّأ نفسه من دم المسيح بغسله أيديه أمام الناس لأنه لم يجد ما يستوجب صلبه. عند قوله مقولته الشهيرة:-

أنا بريء من دمه.

فيجيبه اليهود قائلين: -

دمه علينا وعلى أولادنا.

ولأن الشعب قد طالب بالمسيح بدلا عن "برأبا"، وتعهد بأن يكون دمه عليهم، وعلى أولادهم. غير أن بيلاطس يعمد للتحقيق مع المسيح من جديد، فيعمد إلى جلده عسى أن يكتفي الشعب بذلك، فتنزع عنه ملابسه، ويقلّد تاجا من الشوك، ويُلبس رداء أرجوانيا خاصا بالملوك، ولما يحمل صليبه في طريقه إلى جبل الجلجلة، أو الجمجمة "الجلجُثة بالعبرية"، يقابله في المراحل الأربع عشر موقف منها: توديع نساء أورشليم له. ومساعدة سمعان القيرواني له على حمله الصليب. ومسح مريم المجدلية لوجهه بمنديل سوف يبقى رمزا لانطباع صورته عليها. وهكذا، وعندما يرفع المسيح على الصليب مع لصين كل منهما على إحدى جهتيه، يتقاسم الجنود ثيابه لكنهم يقترعون على ردائه لأنه منسوج غير مخاط. وقبل أن يموت المسيح على الصليب يودّع أمه، وتلميذه يوحنا "الحبيب". وحال أن يتيقن بأن كل شيء قد تم يصيح:

أنا عطشان.

فيناوله أحد الجنود اسفنجة مبللة بالخل، مشكوكة على رأس رمح، وبعدما يتذوّقه يموت.

ولأن اليوم التالي هو سبت التهيئة لدى طائفة اليهود، فإن الشعب يطلب من بيلاطس انزال المصلوبين من على صلبانهم، يعد أن تكسر سيقانهم خوفا من هربهم فيما لو ما زالوا أحياء. ولأن المسيح كان ق مات بالفعل، لم يفعلوا ذلك به، لكن من أجل التأكد طعنه جندي بحربته، في جنبه، فخرج على أثرها دم، وماء [القديس يوحنا الإنجيلي البشير] بعنوان "قبضوا على يسوع، وأوثقوه"، [١٨، ١ - ١٩، ٤٢].

ويطلب "يوسف الرامي" تلميذ يسوع "المسيح" من بيلاطس أن يأخذ جسد يسوع، فيأذن له بذلك، ولما أنزلوه من على الصليب، ذهب "نيقوديموس" ليلا فطيّب جسد المسيح بالمسك، والعود، والمرّ. ووضعوه في بستان قرب موضع الصلب في قبر جديد لم يدفن فيه أحد.

وبعد الخطبة التي يلقيها الكاهن تتلى تسابيح، وذلك بعد أن يرفع تابوت فيه صليب مغطى بالبياض، وعليه زهور. ويلف الجميع "كاهنا، وشمامسة - وشعبا" في دورة حول الكنيسة. ويكون من بين الأناشيد بالضرورة، نشيد "أنا الأم الحنونة" الذي مطلعه:

فليكن موت ابنك حياة لطالبيها
أنا الأم الحزينة، وما من يعزيها
بنت صهيون قد بكت، فأبكت ناظريها.... إلخ.

وأنشودة:

واحبيبي، واحبيبي أيُّ حال أبت فيه
من شجاك من مناك، ما لذا الأمر شبيه
يا حبيبي أيُّ ذنب قد صنعت، أو كريه..... إلخ.

ويكون الدعاء "الشعبي" رمز كبير للأم، ومعنى أوسع من لفظة الأم لابراز معاني العطاء، والتضحية، والحزن. هذه من رموز صبر البشرية على ضيمها في انتظار عودة المخلّص الذي وعد بالرجوع. يعود لكي يفتدي البشرية بدمه. وها هو المسيح قد باشر أول مراحل افتدائه لنفسه في سبيل بني البشر، بموته على الصليب. ولعل تكرر تجسيد "رسم، ونحت" نموذج الحمل أسفل الصليب يعود بالأصل إلى رمز التضحية الوثنية التي كانت قد استبدلت التضحية بالبشر، إلى التضحية بالحيوان بديلا، مثل كبش إبراهيم مثلا، لكن إعادت المثال هنا بالتضحية بالمسيح بنفسه هو رمز للتضحية بالطبيعة البشرية من خلال المسيح ذي الطبيعتين "البشرية، والإلاهية". إن هذه

التضحية الراجعة للنموذج مع فعل الإبدال المقصود لم تكن لتقوم لولا التأكد من العودة من جديد، سواء وقتها في فعل القيام، أو بالقيامة الموعودة للمسيح. وفيها أيضا تأكيد على أن الطبيعة البشرية فانية أو يفعل التجسيد الاني أمام الجمهور الحاضر في الكنيسة، لتحضير الجسد وإماتة رغباته. أما الطبيعة الإلاهية "ربما الروح، والنفس" فباقية. هذا المثال متداخل المعاني، والأبعاد بين التاريخ، وبين الأسطورة.

للموتى أدعية طلبا للنجاة

وربما يكون من المناسب أن نذكر أن قدّاس للموتى تجري فيه فيه مراسيم قريبة من مراسيم الجمعة الحزينة. ولكن من دون المرور بالمراحل الأربع عشر بالطبع. لكن باستخدام التراتيل المواكبة ل"جنّاز" المتوفى، للصلاة على روحه. فيقرأ في الرسالة الأولى مقطع من "سفر أيوب" [١٩: ٢٣ – ٢٧] مثلا... ثم يتلى المزمور "١٠٢". وتكون القراءة في الرسالة الثانية، مقطع من رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل قورنتس [١٩: ٢٣ – ٢٧] مثلا... أما قراءة الإنجيل فمقطع من بشارة القديس متى البشير الإنجيلي [متى: ١ – ١٢] حول ميراث ملكوت السماء للودعاء، والجياع، والمحزونين مثلا. لكن مراسيم "الجنّاز" تختص بخليط من الأدعية، ومزامير الأنبياء، وفيه ابتهالات تطلب تخفيف الحكم على الميت، ووضعه في موضع مناسب. ويتم ذلك من خلال ترديد بين الكاهن، والشعب المصلي، تختتم بأحد مقاطع مزامير داؤد الشهيرة القائلة:

من الأعماق صرخت إليك يا رب
يا رب استجب لصوتي
لتكن أذناك مصغيتين لصوت تضرعي... إلخ.

القيامة، والإنتصار

أما قدّاس القيامة فيبدأ بالهليلويا، وفعل التوبة. إضافة للأناشيد الفرحة، والمنتصرة، لأن المسيح قد انتصر بقيامته من بين الأموات. فيقرأ في الرسالة الأولى مقطع من أعمال الرسل [١٠، ٣٤أ، ٣٧ – ٤٣] بعنوان "أكلنا وشربنا معه، بعد قيامته من بين الأموات"، ثم يُقرأ مزمور [١١٧، ١ – ٢٣] ويعلن الكاهن بقوله، ما قاله المسيح لتلاميذه:

اذهبوا في الأرض كلها،

وأعلنوا البشارة إلى الخلق أجمعين...

أما الرسالة الثانية فيُقرأ فيها مقطع من رسالة القديس بولس إلى أهل "قولَسي" [٣، ١ – ٤]. أما القراءة في الإنجيل فمقطع من إنجيل القديس يوحنا [٢٠، ١ – ٩] يُشرح فيه حادثة القيامة، عندما عادت "مرتا أخت إليعازر" مفزوعة من قبر المسيح الذي ذهبت لزيارته فجر اليوم الثالث "الأحد"، لكي تطيب الجسد، ولم تجد المسيح فيه ولم يجد الرسل منديل الرأس معزولا عن الأكفان الملقات جميعها على الأرض. وبعد قراءة الإنجيل، والخطبة التي تتبعه تسير مراسيم القدّاس الباقية في السياق المعتاد. وبهذا يكون الشعب قد ضمن بقيامة المسيح، تلك المصالحة التي تمت وقد أعفي البشر من ذنوبهم، ومن الخطيئة الأصلية التي لحقت بهم يوم طَرد آدم، وحوّاء من الجنة.

صعود وتجلّي

أما في عيد الصعود، وذلك بعد أربعين يوما من القيامة، وتردد المسيح على تلاميذه، يُلقى في قراءة الرسالة الأولى مقطع من أعمال الرسل [أعمال الرسل – ١، ١ – ١١]، وتتلى بعدها مقاطع من مزامير متعددة، تدعو للابتهاج، والفرح. أما في قراءة الرسالة الثانية، فيُقدم مقطع من رسالة القديس بولس إلى أهل أفسيس [١:١٧ –٢٣] فهي الأخرى تشرح موضوع الصعود. وفي الإنجيل فيُقرأ فصل من بشارة القديس مرقس [١٦: ١٥ – ٢٠] بعنوان "رفع إلى السماء، وجلس على يمين الله". وبينما تمر مراسيم القدّاس العادية، تتلى التراتيل، والأناشيد. وفي فقرة المعجزات تُعدد معجزات المسيح، بالتتالي مع شروح وافية لها مثل: (ألوهية المسيح [يوحنا :٨ ٤٦]. والمعجزات في ذاته [متى ١٧: ١ – ٩]، إلى المعجزات في الأرواح الشريرة [مرقس١٦ : – ٢٦]، و[متى ١٥: ٢١]، و [لوقا ٨: ٢]. ثم معجزات المسيح في البشر [لوقا ٧ ١ :– ١٧]، و[مرقس ٥: ٢٢ – ٤٣]، و[يوحنا ١١: ١ – ٤٥]. ومعجزاته في الطبيعة [متى ٨: ٢٣ – ٢٧]، و[٦: ٣٥ – ٤٤]، و[مرقس ٦: ٤٨]، و[يوحنا ٢: – ١ ١١]، و[لوقا ٥: ١ – ١١٠].... إلخ). كذلك تُتلى نبؤاته ([متى ٢٠: ١٨ – ١٩]، و[مرقس ١: ١٧]، و[أعمال ١: ١٨]، و[لوقا ٢: ٢٤ – ١٤].. إلخ.

يوم تكلم الرسل بألسنة البشر

وفي عيد العنصرة، وهو موعد مرور خمسين يوما على القيامة، فإن القدّاس يبدأ بعد فعل التوبة، بالتسبيح بالمجد للّه في الأعالي. حيث تبدأ قراءة الرسالة الأولى بمقطع من أعمال الرسل [٢: ١ – ١١] التي تقول: كانوا مجتمعين في مكان واحد،

فانطلق من السماء بغتة دوّي كريح عاصفة، فملأ جوانب البيت الذي كانوا فيه. وظهرت لهم ألسنة كأنها من نار قد انقسمت فوق كل منهم لسان. فامتلأوا جميعا من الروح القـُدس. وأخذوا يتكلمون بلغات غير لغاتهم، على ما وهب لهم الروح القـُدس أن يتكلـّموا.... إلخ. وفي قراءة الرسالة الثانية يـُقرأ مقطع من رسالة القديس بولس إلى أهل قورنتس [٢١: ٣ب – ٧ – ١٢ – ١٧] حول حلول الروح القـُدس على التلاميذ يتبع ذلك تراتيل هليلويا أيها الروح القـُدس.... إلخ.

أما الإنجيل فيقدم فيه مقطع من فصل من بشارة القديس يوحنا الإنجيلي [١٥: ٢٦ –٢٧، ١٦أ: ١٢ – ١٥] لتثبيت نفس المعلومة. وهناك في سياق نفس المراسيم لكل قدّاس أناشيد، وتراتيل، وحواشي تـُقرأ لتعاد فيها سيرة المسيح في آلامه .وهذا العيد يوحي بأن الرسل الإثني عشر قد تعلموا لغات البشر بقدرة إلهية، لكي يبشروا الناس بتعاليم المذهب الجديد.

العاشر من محرّم، يوم المقتل

٤ – أما اليوم العاشر من عاشوراء المقابل ليوم "الجمعة العظيمة" فهو يوم الاحتفال العظيم. هو يوم المقتل أو "الطبكك" بالعامية العراقية فيه تحدث المراسيم النهائية التي تنقسم إلى جزئين: –

الأول: الجزء الخاص بالتضحيات الذاتية، والحضور الكامل للمجاميع في ساحة الحسينية الرئيسية، خصوصا مدينة كربلاء. وذلك لأن الامتثال للدعوة "الحسينية" وإعادة أدائها يكون بدلا عن الأجداد الذين وعدوا ولم يوفوا بوعدهم في الحضور. ويتقدم موكب المضحين الذين لبسوا البياض، وحلقوا الرؤوس، لجرحها بالسيوف والخناجر. وقد جاؤوا منذ الصباح الباكر لذلك اليوم، بل إن بعض الوفود قد بات منذ ليلة أمس. "المضحون منهم على وجه الخصوص" في ساحة الحسينية[2]. ويكون الشعب في تلك الليلة قد هيأ نفسه لليوم الأخير. وسهر الكل وطبخوا الأطعمة الخاصة. لأن موكب المضحين المكفرين يشتمل على أعداد كبيرة. تمثل كل مجموعة فيه كموكب، فئة معينة من الفئات التي كانت قد جاءت "لنـُصرة الحسين التي لم تتم". وهي تمثل تلك الأقوام التي ما يزال أحفادها يتذكرون الوعود. وما

---

٢) لقد شهدت أحداث هذا اليوم والليلة التي تسبقه لمرات. في كل من ضاحية الكاظمية بمدينة بغداد. أو في مدينة كربلاء. أو مدينة الكوت بمحافظة واسط.

تضحية بعضهم بجرح رؤوسهم أو ضرب أجسادهم بالجنازير إلا تمثيلا للاستشهاد والموت في الموقعة التي لم يشارك أجدادهم فيها أصلا.

الثاني: أما الجزء الثاني الخاص بالمراسيم النهائية فيأتي بعد ذلك في نفس اليوم. إذ تتم إعادة تمثيل الأحداث بتسمية أشخاص يمثلون الابطال الرئيسيين فيها، وحتى الأطفال منهم، مثل "أولاد حسين"، أما الشخصيات فمنها "الشِمر، ووهب النصراني، وغيرهم". فيقوم الجمعان في طرفين، بينهما عساكر "يزيد" وكومبارس. ويتجول هؤلاء كلهم على الخيول، ويميز كل منهم علامات واضحة من نوع الملبس والاكسسوار، لأنه ليس هناك مكان يلتقون فيه للمحاورة في شوارع المدينة. وإنما هناك عروض فروسية للمباراة في المعارك التي حصلت. وغالبا ما تكون أشكال الأعداء بشعة سواء في الاختيار لمشخصي الادوار. أو بإضافة بعض الألوان الداكنة للوجوه. بينما تكون أشكال الضحايا والسبايا صغارا وكبارا من ذوي الأشكال الحسنة، والملامح الجميلة، وهذا الطابع في التشخيص نراه متكررا في تصوير مسرح الدمى. فقد لاحظنا في تونس أن دمى الأعداء وهم الصليبيون بشعة التعبير والمظاهر. لكننا وجدنا العكس في دمى صقلية. وفي كثير من الأحيان، تعوز المنظمين الحيلة في توضيح خصية ما للجمهور. مثل شخصية "وهب النصراني"، الذي أنقذ رأس الحسين" رض" هو والأسد بعد موته. فإنهم غالبا ما يلبسون "وهب" القبعة، ويعلقون بكتفه آلة تصوير "كاميرا"، لأنه ليس للشخصية أو المكان من مجال لوصف وتوضيح معالمها ومميزاتها النمطية. أما وصف الأحداث فإنه هو الآخر يلاقي صعوبات في هذا التجوال الكامل في المدينة. لكن بعض المراكز المنتشرة والمستقرة يتمركز في غالبها من هو مكلف بتلاوة الرواية وصفا وإنشادا هنا وهناك. والجماهير المتفرجة، وهي الجموع المساهمة في الحزن، والعارفة بسياق الأحداث، بل والتمشبعة بكل كلمة وحرف منها، تتابع الأحداث وتقرن المواقع والرواية دون صعوبة تذكر.

ويمر الموكب الأخير، وقد وضع رأس "الحسين" في نعش. وهناك علامة لأسد جاثم كان قد حرس الرأس، ورموز أخرى يفهمها الشعب. وتمر المواكب المشاركة على أصوات "الطوس" والإيقاعات. أما المنشدون من المختصين فما يزالون يسردون الوقائع لإثارة اللواعج والأشجان تمركز كل منهم في سرادق مقام في البلدة. ولا يكتفي بعضهم بسرد القصة، وإنما يستغلها في نقد الوضع القائم، خصوصا إذا ما كان البلد في ضائقة سياسية. تصلح هذه المناسبة للمقارنة والإسقاط واستغلال المنبر للتفريج

عن الهموم وطرح مطالب شعبية مرادة. وكثيرا ما تقوم بعض الحكومات بإيقاف أو بمنع التعازي بحجج دينية أو طائفية بظاهرها. ولكن باطنها خوف من الإثارة واستفحال الأمر.

غير أن بعض الحكومات الأخرى للبلد نفسه تشجع إقامة هذه الفعاليات في بعض فترات حكمها، ومن خلال مخطط مقصود وبرقابة مرصودة. وذلك من أجل امتصاص النقمة الشعبية. فإذا منعت هذه الشعائر رسميا، فإنها تقام على الصعيد الاجتمعاعي سرا، داخل المنازل خصوصا بعد توفر أجهزة "الكاسيت". أو ربما علنا لأن التعلق بالواعز الديني وهواجسه لا تجعل الفرد المنصاع لها واعيا للمخاطر. بل ربما يعتبر اضطهاده من خلالها نوع آخر من التكفير. لذلك ترتدي النساء والأطفال ملابس الحزن السوداء لمدة أربعين يوما. ويأكلون مأكولات خاصة توزع من خلالهاالبركات والنذور. وفي بعض السنوات كانت المنظمات النسائية والشبابية والأحزاب السياسية والمنظمات النقابية تساهم في مسيرات الأيام العشر ومواكبها لكي تشعر الجموع المحتفلة أنها وبالرغم من تعلقها بالمبادئ السياسية، لم تنس الشعائر الدينية، أو أنها لم تتخل عن السيرة الحسينية[3].

السيرة الحسينية باقية في المجتمع العربي

١ – إن هذا الاحتفال الشعبي و التقمص الاجتماعي المسرحي داخل إطار السيرة الدينية بين فاعل مشارك. أو مؤدٍ للحدث. أو راو منشد، ومشاركيه هو السيرة الملحمية المسرحية الأكثر حيوية والأعم انتشارا. أو الأقرب لنفوس الجمهور. وما سر امتدادها والصراع حول بقائها إلا نوع من الصراع ما بين الجمهور المتعلق بها، وبين السلطة الحاكمة، وما بين الفعل التشبيهي والتمثيلي، الرغبة في التفكير والتطهير. بطرق مختلفة يصل بعضها إلى موت الفرد. إنها في الحقيقة الدراما المتأصلة في روح الشعب مهما اختلفت أسماؤهاوأبطالها. ومهما تنوعت أحداثها وتفاصيل مواقعها من طائفة إلى أخرى ومن دين إلى آخر ومن شعب إلى غيره.

٢ – فلنفس المظهر والسبب وفي الأيام ذاتها تسير مواكب من دمشق باتجاه قرية "السيدة زينب" يتقدمه رجال أقوياء بأيديهم العصى والحراب القصيرة. وفي وسطهم تابوت مجلل بالبياض وخلفهم الشيوخ والنساء وأصوات البكاء والصراخ

---

٣) وذلك ما شاهدناه في المحافظات العراقية، ومنها مركز محافظة واسط مدينة الكوت عام ١٩٦٩ وحتى عام ١٩٧٨.

تملأ الموكب، يضربون رؤوسهم وأجسامهم حتى إذا ما وصلوا قرب مرقد "السيدة زينب" قاموا بمراسيم الأدعية والاذكار ومنهم من يبقى هناك لثلاثة أيام.

ورغم ما يقال بأن أحداث مسرحيات التعازي مكتوبة لكنها في غالبها تعتبر مؤلفا شعبيا لأن مؤلفيها مجهولون. وهذا ما يتوافق مع طريقة وطبيعة السير الأخرى. وذلك بفعل تفاعلها أثناء روايتها مع عواطف الجمهور. ومن جهة ثانية بفعل اختلاف الرواة والمنشدين ليس في البلد الواحد فحسب، وإنما في بلدان متعددة تختلف حتى في طبيعة الانتماء القومي رغم التوحيد الديني. وما للتأثيرات البيئية من فعالية على اختلاف إطار عن آخر، إنما لا يختلف اثنان على خط سير السياق العام. رغم اعتماد حس الابتكار والتلقين خصوصا وأن الأحداث المشخصة يتم بعضها سيرا. أما الأداء فلا يتطلب أكثر من جمل مقتطعة قد حفظها الشعب وعرفها ورددها كثيرا. لكن تلاوات الرواة والمنشدين والروزاخون على المحتفلين والمشاهدين تمتزج فيها الرواية النثرية والشعر الملحن المؤدى على أنغام الطبل و"الطاس والترامبيت". إضافة لإيقاعات الصادرة عن ضرب الصدور والأكف من قبل المجاميع المختلفة. يشيع كل ذلك جوا من الرهبة. وحالة من الحزن الجماعي المؤثر. تفرد بعض المبدعين بأساليب استدرار الحزن، ومن خلال القصائد الشعبية "العامية" تأليفا أو ارتجالا. ولكن في نفس السياق هو نوع من أنواع "التعديد" الحزين تقوم بموجبه الردات الحزينة من الجموع. وتتراوح هذه القصائد بين وصف الأحداث إلى وصف حال الشخصيات تميز راو "معدد" عن غيره بحسن الأسلوب وقوة استدرار العواطف الوجدانية. اشتهر بها لفترة طويلة الراوي "عبد الزهرة الكعبي" من أهالي مدينة "طويريج" التابعة لمحافظة كربلاء في العراق.

نصوص شعبية بحاجة لتدوين ودراسة

١ – ومن الأمثلة المتوفرة من هذه القصائد التي ترافق سرد السيرة، ما جاء في كتاب "الجمرات الودية في المودة الجمرية" في مقطع (في ليلة العاشوراء)، قوله:-

طلعت تجر الحزن وقت العشية "المساء"-
أو مرت "مرت" على فسطاط أبو سكنة شجية/
هلت ادموع "انهمرت دموع" العين لمن شافت احسين "عندما رأت الحسين"-
محتار جالس والمدامع على الخدين/
متصور الفقد إخوته أو هتك النساوين "وهتك أعراض النساء"-
يتلهف وايعتب "يعتب" على الدنيا الدنية" الدانية"

إلى أن يصل في قوله:

قلله ينور العين باكر "غدا" عينك اتشوف "ترى"-
ابجنب الشريعة ابصولتي شفعل "ماذا أفعل بصولتي عند
مرسى الماء "بالصفوف/
كان القضا "القضاء" ساعد أو سلمت "وسلمت" لي هلكفوف "هذه
الكفوف"-
لترك أهل كوفان كل بيت ابعزيه "فيه عزاء"/
كله لأجل زينب تراهي "فإنها" ذو بنتي -
شافت "رأت" الجيش أو بقيت "وظلت" تنحب واشبيتني
"فشبت"... إلخ.

وفي مقطع آخر يصف مجيء "الحسين"... إلى مصرع "العباس"، فيقول:

يحسين "يا حسين" قوموا امن "من" الخيم ذبوا "انزعوا أو ارموا"
العمايم" العمم"-
هذا بدركم منخسف يولاد "بدركم قد أصابه خسوف يا أولاد"
هاشم.

ثم يقول في مقطع آخر:

انخوصر على عضيده يودعه أنفاس" تخصر بعضده ليودعه، وصعد
الأنفاس - يا جمرة الكون الذي ما قط تنحاس "تحاس"/
ظهري تراهو "فإنه" انكسر من فقدك يعباس "يا عباس" - طاح
العلم وانفلتت مني العزايم "سقطت الراية، وانفرطت عني
العزايم"/
عزم يشيله "يحمله" للمخيم قال ما روح "لا أذهب"- خلني "دعني"
على الشاطي" الشاطئ "أعالج طلعة الروح.

وفي مقطع "رثاء القاسم" يقول:

وش هالعرس "وما هذا العرس" لعشر "النحس" عليه "علي" يا
مسلمين - كيف العرس واحنا انتوقع "ونحن نتوقع" ذبحة الحسين.

حتى يصل إلى مقطع:

مفجوع على مهجة قلبها بالأيادي "في الأيادي"- أو هذي
"وهذه" العساكر حايطة "تحوطني" يا الولد بيه "فيه".

أما في مقطع "في مصرع الحسين" فيصف قائلا:

فرت بدهشة مخدره "حيدر" الكرار - يم العليل تقول اقعد
"اجلس" وانظر شصار "ماذا حصل"/

يبني "يا ابني" الشمس غابت وهذا الكون مرجوح - والجو مظلم
والأرض ياسورنا تموج/
وحسين عهدي بشوفته "برؤيته" من لاح بالغرج - والكون متعطل
وأظن الفلك ما دار.

ثم يصل إلى مقطع:

وإلا يتيم وشعب الروح بعويله - بليا "بلا" ولي والليل مجبل "مقبل"
والعد اشرار "العدوان".

وفي "مقطع في غشوة الحسين" يقول:

تحير "حار" العسكر يوم طالت غشوة "اغمائية" الحسين -
شافوه "رأوه" ثلث "ثلاث" ساعات مرمي مغمض العينين/
ناس تقول حسين بطّل "انقطع عن" من ونيه -
فارقت روحه وأغمضت للموت عينه/
وآخر يقول حسن كلكم تعرفونه -
صاحب حمية "من أصحاب النخوة" على بناته والنساوين"
والنساء"/
أو كان "وإذا كان" تعرفونه حي لو مات -
هجموا على خيامه وروعوا الفاطميات/
واكان "وكان" هو حي وسمع بالخيم "الخيام" ضجات -
لازم "لا بد" يثور بشيمته ويحمي الصواوين "الديار"/
أمر العسكر بن سعدو استحسن الشور "الاستشارة"-
وخيك "تلك" الحراير بالخيم واقلوبها "قلوبها" تفور/
لن الزلم "وإذ بالرجال" والخيل غارت يم "عند" الخدور "خدر
النساء"-
طلعت من خيمها تصيح الملتجاوين "اللاجئين"/
فرت بدهشته صارخة كعبة الأحزان -
كهف اليتاما انهض ترا هتكو النسوان "فإنهم قد
هتكوا أعراض النساء"/
حرمه "امرأة" وضعيفة حال تبلوني "قد بلوتموني" برضعات -
بما سمع صوت الوديعة فتح العين/
قلها "قل لها" يزينب "يا زينب" ذاب قلبي من هالعتاب "هذا
العتاب"-
مقدر "لا أستطيع" أرد الخيل خويه "أخي" عن هالأطناب
"عن هذا الأطناب"/

أنهض ثلث مرات وأوقع فوق التراب -
ردي لخدرك يا حزينة لا تضيعين/
سهم البقلبي "الخي بقلبلي" نزف دمي ومزع حشاي "نزع أحشائي" -
مثلث ولا اتمكنت اطلعه "لم أتمكن من إخراجه" إلا من قفاي" خلفي"/
خوية "أخي أو أختي" تخلوني "تدعوني" أموت ومحد "لا أحد" وياي "معي"-
جبيبي "اجلبي" لي سكينة "مدية" قبل لا يفرّق البين/
صاحت ينور "يا نور" العين والله تحيرت بيك "احترت فيك"-
تمنيت أجي يمك "آتي إليك" وشوف العمل البيك "الخي ألم فيك"/
ولو هو الدوا "الدواء" قلبي لغت "لأسحق" قلبي وأداويك -
وأغسل جرح قلبك يخوية "يا أخي" بدمعة العين.

ونلاحظ في هذه الهجائية وصفا دراميا كاملا. يتنقل ما بين الشخصيات والأحداث في الزمان والمكان. وقد شخصت اللهجة العراقية، والخليجية بتفاصيلها القريبة من الوجدان كثيرا من العواطف التي تستحث المشاركة، خصوصا لهؤلاء الذين يحملون الحس الديني، ويشاركون الحس المأساوي. وذلك بتفاصيل حفظوها عن طريق آبائهم وأجدادهم وجداتهم. وقد ترسخت لديهم من خلال الذاكرة الشعبية. وفي هذا السياق يكون الفرد المتعاطف قد تهيأ اجتماعيا ودينيا وعاطفيا. وصارت هذه الأيام العشرة تمثل كل جوارحه. وهي في الوقت نفسه نوع من التكفير والتطهير السنوي. وأيضا هي من جانب آخر نوع من النذر الذي تقوم به كثير من السيدات والآنسات على تطبيق العشائر صوما وصلاة وممارسة الشعائر فيما لو أردن تحقيق أمنية مستعصية ما.

وفي فقرة "الجمرة الوسطى" يعرف المؤلف هذا النوع من الهجائية والمراثي قائلا: {وهي أي "الجمرة الوسطى" المشتملة على ما تعاطاه أهل "البحرين" منذ عشرين عاما تقريبا وهو بحر طويل يوازن فاعلات أربع مرات، منها مقطع رثاء "فاطمة". أما في فقرة "الجمرة الثالثة" فيصفها بأنها: "تشتمل على ما يخص المواكب العزائية". وهنا أيضا الأبونيات.}

٢ - أما المثال المكتوب الثاني فهو للسيدة "فاطمة آل اسماعيل" في كتابها "الدموع المؤمنة". مرثيات مثل "رثاء على السجاد" و"رثاء على العباس" ولديها

"ردادية على أولاد مسلم". أي ما هو منسوب للردات، تقول "السيدة فاطمة" في مطلعها:

آه يالولاد "يا أولاد" ذبحوكم وافجعوني "فجعوني"-
شفت العمايم "رأيت العمم" واحترق قلبي وهلت "نزلت"
عيوني/هاي العمايم "هذه العمامات" في وين اهلها
ردوا "في أي مكان رجعوا أهلها" عليه "علي"-
والله دهتني كثر المصايب "حيرتني كثرة المصائب" في
الغضارية "اسم المكان"/
امطهّر "مطهّر" وطاهر من هجمت الخيل فروا من اديه "يدي"-
وآني وحيده ما عندي ارجال بالله اعبروني. وأنا وحيدة
بلا رجال يعبروني.

أما في المراثي فتقول السيدة "فاطمة" في قصيدة "رثاء على عشرين من شهر صفر للسنة الهجرية":

جيت "جئت" من الشام قوموا ياهلي "يا أهلي" -
ونزلوني "وأنزلوني"/
وياي "معي" ايتام "يتامى" من يبكيهم -
ينحلوني "يخوبوني من الحزن"/
من قبرك قوم يخوية "أخي" يحسين "يا حسين"-
وانظر أحوالي "حالي")

حتى تصل إلى المقطع الذي تقول فيه:

ذل يجي "ليأتي" اليوم ينظر حالي -
وجيته امنين "مجيئه من أين"/
وذل "وذع أو دعه" ينزل من على النوق -
هالنساوين "هؤلاء النسوة"... إلخ.

إن المؤلفة كما يبدو من الحفظة اللواتي استطعن تدوين فنهن بهذا الشكل غير أن ما هو وراء حرفتهن كثير من الاختصاص والحرفية المتعلقة بإثارة المشاعر وإبرازها يكون أحد فروع مهنة المعددات اللواتي يتخصصن في إثارة أشجان أهل الميت في المآتم. أقتطف هذا التعبير الجميل الوارد في رواية "السدرة تزهر مرتين" للروائي:فائز الزبيدي "يصف فيه إحداهن بقوله: {كانت "زكية" حينئذ فتية وجميلة الصوت. اشتغلت في البداية ب"درز العبي"، أي خياطة العباءات، الذي تعلمته على يد "المرزا" الذي جاورهم، والذي كانت امرأته تعلّم الصبايا قراءة القرآن و"شيرازية العبي" أي فن خياطة العباءات. وهناك حفظت "زكية" جزأين من القرآن. وقد جلب

جمال صوتها، وما تحفظه من القرآن أنظار "مـَلة أسمة" التي علمت الأرملة الشابة "زكية" فن إثارة أشجان النساء وإيقاظ وحشة الحياة النسائية ليتشرب بها الجسد كله فيمارس اعتراضات لم تعرف أسماؤها ولا امرأة واحدة}. ويبدو أن إتقان هذه المهنة "مهنة استدرار الدموع" ليس سهلا. ولا بد للمـُشخصة من مواصفات تتعدى جمال الصوت وفطنة الحيلة وسرعة البديهة. هو وفرة المشاعر وغزارتها لكي تتدفق حالما تستفزها المحترفة. لذلك كان هناك تميز بين "عدادة" وأخرى بدرجة الإجادة وقوة التأثير وصدق المشاعر. كأنما يدخل فنهن في عداد دروس ستانسلافسكي المخصصة بحرفة فن التمثيل.

السيرة الحسينية المروية

وفيما يلي نقدم مثالا شفاهيا منقولا عن شريط تسجيل[4] للمرحوم السيد عبد الزهرة الكعبي الراوي، والمنشد[5]، نستعرض فيه سياق رواية أحداث يوم المقتل "العاشر من عاشوراء" في الفقرة الأولى منه[6]. ورواية سير أحداث ذكرى الأربعين من المقتل- :

أولا
يوم المقتل

فبعد أن يقدم الراوي "الكعبي" نفسه يبدأ بالتحميد، والتمجيد، ويتلو أدعية. ينبري "الكعبي" ليوجه الناس لكي يأخذوا أماكنهم، ويستعدوا لجلسة سوف تطول. والحقيقة إن مجلس الراوي عبد الزهرة الكعبي لا يسع الجالسين، والواقفين لصيته

---

٤) هذا التفريغ لشريط التسجيل، لم يسبق أن وُثق كمادة بحث بهذا الشكل. لكن الدكتور محمد عزيزة، كان قد حقق نصا مكتوبا، في أطروحته الإسلام، المسرح.

٥) الراوي عبد الزهرة الكعبي - المتوفى في حدود عام ١٩٨٦. من أبناء مدينة" طويريج" من أعمال محافظة كربلاء. وهو تسجيل صوتي لأشرطته المتداولة حتى الآن ليس داخل العراق فقط، وإنما في خارجه أيضا.

٦) رغم كثير من الصعوبات في تفريغ شريط التسجيل الخاص بالراوي عبد الزهرة الكعبي، لما لتداخل بعض العبارات والأسماء. إلا أننا حاولنا جهدنا أن نكون أمناء على نقل ما ورد في الشريط حرفيا مع بعض التصويبات في العبارات التي ترد في اللهجة العامية. فإذا ورد خطأ جديد ما نرجو تصويبنا من أجل موضوعية مثلى.

وشهرته الكبيرين. لذلك يضطّر البعض الكثير للإنصات إليه، وهم في الخارج، من خلال مكبرات الصوت التي تصل إلى الحواري الجانبية، وبخاصة النسوة منهم.
إن تقديم "الكعبي" للسيرة الحسينية يعتمد على كتاب يقرأه. لكنه يرتجل كثير من الأحداث التي يحفظها عن ظهر قلب، والأدعية التي يكررها، والأناشيد البكائية التي يرتجلها، ممزوجة ما بين الفصحى، والعامية. أما الجمع فقد جاء متهيأ بالكامل، بعد أن أجهدته الأيام التسع. وها هي صبيحة اليوم العاشر دنت حيث ستتلى فيها السيرة هنا، يستمع إليه ويشارك وجدانيا، وحسيا أثناء تلاوة السيرة، كما يشارك في الحارات حيث تشخص السيرة حضوريا من قبل الأفراد .أما المنشدين هنا فمن الناس الباكين المكفرين عن خطاياهم، وهم غالبا من غير هؤلاء الذين نذروا أنفسهم، ففزعوا منذ الصباح الباكر للبس الأكفنة، وحلق رؤوسهم لكي يجرحوها بالسيوف في موكب العزاء. هي نوع آخر من التكفير. وربما هي نوع من أنواع النذور لا تتورع سيدة في أن تدفع صغيرها لكي يجرح جرحا صغيرا رمزيا. متيمنة بالبركة والاستبشار بالرحمة.
ويستعرض "الكعبي" السيرة الحسينية في يومها الأخير، من خلال موقف الحصار الذي وقفه الحسين، وآل البيت مع "عُبيد الله بن زياد". حيث يقوم الحسين "رض" كما يروي "الكعبي" بقوله:

لما أصبح الحسين في يوم عاشوراء، وصلى بأصحابه صلاة الصباح، قال خاطبا فيهم: سبحانه تعالى قد أذن في قتلكم، وقتلي في هذا اليوم، فعليكم بالصبر والقتال.

ثم صفهم للحرب فكانوا سبعة وسبعين رجلا، ما بين راجل، وفارس. فجعل "زهير ابن القن" في الميمن، و"حبيب ابن مظاهر" من الميسرة، وأعطى أخاه "العباس" رايته. وثبت هو "رض" وأهل بيته في القلب.
(يُسمع منذ الآن بكاء، وعويل من جهة الجمهور)....

ثم يقول "الكعبي" في مقطع لاحق آخر:

فنادى "شِمر" بأعلى صوته: -
يا حسين تعجّلت بالنار قبل يوم القيامة.
فقال الحسين: -
من هذا كأنه شِمرُ بن ذي الجوشن ؟
قيل له - :نعم.
فقال الحسين: -
يابن راعية المعزة، أنت أولى بها مني طلبا....

وفي موقف آخر يصف "الكعبي"، الحسين "رض" قائلا:

وقال الحسين: -

أكره أن أبدأهم بقتال.

ولما نظر الحسين "رض" إلى جمعهم، وكأنه السيل، رفع يديه بالدعاء، وقال: - اللّهم أنت ثقتي في كل كرب. ورجائي في كل شدة. وأنت لي في كل أمرٍ نزل بي، وثقة، وعدة..... إلخ.

ويصف "الكعبي" كيف يخطب الحسين "رض" في الجمع من على راحلته "ناقته" لكي يبعدهم، ويبعد آله عن القتال، والذبح مذكّرا إياهم بحسبه، وانتسابه الشريف للنبي محمد "ص" وآل البيت. بينما لا يتوانى "الكعبي" عن وصف ما يدور حول الحسين من أحداث، سواء مع أصحابه وأهله. أو مع الأعداء... إلى أن يقول "الحسين -رض في خطبته": -

إذا كنتم في شك من هذا القول أفتشكون بأني ابن بنت نبيكم، فوالله فما بين المشرق، والمغرب ليس ابن بنت نبيٍ غيري.

فأخذوا لا يكلمونه، فنادى: -

يا "شبث بن ربعي"، و"حجار بن بجر"، و"قيس ابن الأشعث"، ويا "زيد بن الحارث" ألم تكتبوا إليّ أن أقدم، وقد أينعت الثمار، واخضّر الجمّار، وإنما تقدم على جندٍ لك مجندة.

فقالوا: -

لم نفعل.

فقال "رض": -

سبحان الله بلى والله لقد فعلتم.

ثم قال: -

أيها الناس إذا كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض.

فقال "قيس ابن الأشعث": -

أولا تنزل على حكم عمك، فإنهم لن يرُوك إلا ما تحب. ولن يصل إليك منهم مكروه.

فقال الحسين "رض": -

أنت أخو أخي. أتريد أن يطلبك "بنو هاشم" أكثر من دم "مسلم ابن عقيل". لا والله لا أعطيكم بيدي اعطاء الذليل، ولا أفرّ فرار العبيد. عباد الله إني عُذت بربي، وبربكم من كل متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب.

ثم أناخ راحلته وأمر "عقبة بن سمعان" فعقلها. ويعلق الراوي "الكعبي" بقوله منشدا. إن أنسى لا أنسه عندما قام فيهم خاطبا. فإذا هم لا يدركون خطابه، يدعو:-

ألست أنا ابن بنت نبيّكم، وملاذكم إن صرف الدهر نابَ. هل جئت في دين النبيّ" ص" ببدعة.

(يُسمع صوت أحد المنحنين يقول: - حاشاه).

أم كنت في أحكامه مرتاب. أم لم يوطد دين النبيّ، فقد ألّم فيكم عشرة، وكتابا، إن لم تدينوا بالمُعاذ فراجعوا أحسابكم، إن كنتم أعرابا.

فغدوا حيارى لا يرون لوعظه إلا الأسنة، والرماح جوابا.

وبعد وصف "الكعبي" لبدء المعركة، وزحف الأعداء على جيوش الحسين، وأصحابه، يصف حادثة "عبدالله بن حوزةالتميمي" الذي ينادي على الحسين "رض" بقوله: -

أبشر بالنار.

فيرد عليه الحسين بقوله: -

كذبت بل أُقدم على رب غفور كريم، مطاع شفيع، فمن أنت ؟

قال ابن حوزة: -

فرفع الحسين يديه حتى كان بلاغ بطيه، وقال: -

اللّهم خذه إلى النار.

فغضب ابن حوزة، وأقحم فرسه إليه، وكان بينهما نهر فعلقت قدمه بالركاب، وجالت الفرس، وسقط عنها، وانقطعت قدمه، وساقه، وفخذه. وبقي جانبه الآخر معلقا بالركاب، وأخذت الفرس تضرب به كل حجر، وشجر حتى هلك.

وبعد وصف " الكعبي" لرغبة "برير بن حُضير" في مخاطبة القوم، لتحاشي الحرب، وكيف أنهم لم ينصتوا لقوله. بل رموه بالسهام، ويروي الكعبي كيف ركب الحسين "رض" فرسه، وأخذ مصحفا شريفا ونشره على رأسه. ووقف بازاء القوم لينهاهم هو الآخر عن الحرب، لكنهم أبوا، ولم يستجيبوا، فيقول "الكعبي":-

واستدعى الحسين "رض"، "عمر بن سعد". فدُعي إليه. وكان كارها، لا يحب أن يأتيه. فقال الحسين "رض" ل"عمر": -

أتزعم أنك تقتلني، ويوليك الدعيّ بلاد "الري، وجرجان"، والله لا "تتهنأ" بذلك عهد لمعهود، فأصنع، فأنت لا تفرح من بعدي بدنيا، ولا آخرة، وكأني برأسك على قصبة يتراماها الصبيان بالكوفة. ويتخذونه غرضا بينهم. فصرف بوجهه عن الحسين" رض" مغضبا ولما

سمع "الحرّ بن يزيد الرّياحي" كلام "أبي عبدالله الحسين" واستغاثته أقبل على "عمر بن سعد" وقال: -

أمقاتل هذا الرجل؟

قال "عمر بن سعد": -

أي والله قتالا أيسره أن تسقط فيه الرؤوس، وتطيح الأيدي.

قال الحرّ: -

ما لكم فيما عرضه عليكم من الخصال ؟

فقال عمر: -

لو كان الأمر إليّ، لقبلت، ولكن أميرك "بن زياد" يأبى ذلك.

فتركه الحرّ، ووقف مع الناس، وكان إلى جانب "قرّة ابن قيس". فقال الحرّ إلى قرّة: -

هل ألتقيت فرسك ؟

فقال قرّة: -

أجل.

فقال الحرّ: -

أتريد أن تسقيها ؟

فظن "قرّة" من ذلك أن "الحرّ" يريد الإعتزال، ويكره أن يشاركه أحد. فأخذ "الحرّ" يدنو من الحسين بن علي "رض" قليلا قليلا. فقال له" المهاجر بن أوس": -

أتريد أن تحمل ؟

فسكت "الحرّ"، وأخذته الرعدة، فارتاب "المهاجر" من هذا الحال، وقال له: -

لو قيل لي من أشجع أهل الكوفة، لما عدوت صراحة الذي أراه منك.

فقال الحرّ: -

إني أخيّر نفسي بين الجنة، والنار. "صمت - ثم" والله لا أختار شيئا، ولو أحرقت.

ثم ضرب جواده متوجها به نحو الحسين بن علي "رض" منكسا رأسه حياء من آل الرسول ... إلخ.

وبعد وصف "الكعبي" للمناوشات، والمواقعات في المعركة، وتشخيصه لعدة أحداث بالتفصيل. كمقتل "عُمير الكعبي من بني عُليم"، ثم موقف تبرّع الرجال بالفداء بأنفسهم أمام الحسين بن علي "رض" وآله. مع ذكر الأسماء، والأنساب أفرادا،

وجماعات، يقوم "الكعبي" بوصف مشهد بداية المعارك، منتقلا لحادثة حرق الفسطاط "أي الخيام التي يعسكر فيها الحسين، وأصحابه". ثم يصف محاولات الاختراق والصد. فيصف "لكعبي" هذه الموقعة بقوله: -

فلما ذهبت الخيل لترجع، رشقهم أصحاب الحسين بالنبل، فصرعوا رجالا، وجرحوا آخرين، ثم حمل "عمر بن الحجاج" من نحو الفرات فاقتتلوا ساعة، وفيها قاتل "مسلم بن عوسجة" فشدّ عليه "مسلم بن عبد الله البجلي"، ودارت لشدّة السجال غبرة شديدة، وما انجلت الغبرة، إلا و"مسلم بن عوسجة" صريعا، وبه رمق. فمشى إليه الحسين "رض"، ومعه "حبيب بن المظاهر".

فقال له الحسين: -

رحمك الله يا "مسلم".

ثم تلى قوله تعالى: -

فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا "صدق".

ودنا منه "حبيب" وقال:

عزّ عليّ مصرعك. أبشر بالجنة.

فقال "مسلم" بصوت ضعيف: -

بشّرك الله بخير يا أخي حبيب.

قال له "حبيب": -

لو لم أعلم إني في الأثر لأحببت أن توصيني بجميع ما يؤملك.

فقال له "مسلم": -

أوصيك بهذا "يُسمع بكاء، وعويل من الجمهور، في الشريط" وأشار إلى "الحسين بن علي - رض" أن تموت دونه.

فقال له "حبيب": -

أفعل.

ويقوم الراوي "الكعبي" بانشاد هجائية بكائية "من النوع الذي تقدم في المثالين المكتوبين" تثير الشجون، والبكاء، وتزيد من عملية لطم الصدور بالأكف حتى يعود "الكعبي" لإكمال رواية السيرة الحسينية فيقول: -

وصاحت جارية، وامسلماه، يا سيداه، يابن عوسجتاه. فتنادى أصحاب" ابن الحجاج "قائلين: -

قتلنا "مسلما" ... إلخ.

ويروي "الكعبي" كيف أن "الشِمر" يقدم على احراق الفسطاط بيديه. لكنه يتراجع من وقع كلام الحسين "رض" ورجاله عليه. عندما تقترب الشمس على المغيب يصف

"الكعبي" كيف التفت "ابن ثمامة الصاعدي" إلى الشمس، فرآها وقد زالت، فقال للحسين "رض": -

نفسي لك الفداء، إني أرى هؤلاء قد اقتربوا منك، و الله لا تقتل حتى أقتل دونك، وأحب أن ألقى الله، وقد صليت هذه الصلاة التي دنا وقتها.

فرفع الحسين "رض" رأسه إلى السماء وقال: -

ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلين الذاكرين.

ويعلّق "الكعبي" بقوله: -

أنظروا أيها المسلمون، دعى الحسين بن علي "رض" لهذا العبد بأعظم دعاء، وهو أن قال: -

جعلك الله من المصلين.

ويصف "الكعبي" المعركة الفاصلة، وكيف قتل "حبيب بن مظاهر"، وحُزّت رأسه. وكيف فدى "الحرّ" نفسه أمام الحسين "رض". وفيها يبرز الوصف الدرامي لمشهد "الحرّ" في رمقه الأخير، مع الحسين "رض" وأصحابه. و"الكعبي" بوصفه هذه الحوادث بالذات يبغي من خلالها إثارة الشجون بإنشاده المميز المعهود. له بكائيات مشهورة، كتلك التي قدمنا لها لكل من الخطيب "مُلا عطية علي البحراني"، والمُلا "فاطمة بنت الحاج جاسم آل إسماعيل". خصوصا تلك المقاطع التي تتعلق بمشهد مقتل الحسين "رض"، وقطع رأسه الكريمة، وتراكم الجثث فوق بعضها.

ثانيا
ذكرى الأربعين

وفي ذكرى مرور الأربعين يوما على مقتل الحسين "رض" تقام احتفالية تكملية غير منقطعة لليوم الأخير "يوم عاشوراء"، ولكن الوصف يتضمن سرد أحداث ما بعد المعركة، وما جرى فيما بعد من أعمال السبي لأهل الحسين "رض". إذ يبدأ "الكعبي" بالإنشاد كالعادة، ليهيء الناس، ويثير لديهم الشجون والبكاء، يقوم هنا بالاستشهاد بالرواة الآخرين "ربما لأن كثير من الأحداث تجري في رواية ذكرى الأربعين بعيدا عن كربلاء"، ويبدأ بشهادة "ابن الطوسي" الذي يصف قائلا: -

وتسابق القوم بالآف على بيوت آل الرسول، وقرّة عين البتول. ففرجن بنات الرسول "ص" وحريمه، يتساعدن على البكاء، وينشدن لسراط الحماة، والأحبّة. قال "حميد بن مسلم": -

ورأيت امرأة من بني "بكر بن وائل" كانت مع زوجها في أصحاب "عمر ابن سعد"، فلما رأت القوم قد اقتحموا على نساء الحسين "رض" في فسطاطهم، وهم يسلبون. أخذت سيفا، وأقبلت نحو الفسطاط، وقالت: يا آل "بكر بن وائل" أتسلبون بنات رسول الله "ص"... إلخ.

ويروي "الكعبي" كيف أُخرجت النساء، وهن باكيات حاسرات الرؤوس، حافيات. واصفا حال "زينب – رض. بنت علي – رض" وهي تندب أخاها الحسين "رض"، عندما رأت جثته، ورأسه قد قطعت عنها. ومنظر ابنته "سكينة" التي كانت تسأل عمتها "زينب – رض" عن حال الجسد أمامهما؟ ولمن هو؟ ولماذا تبكيه عمتها؟ فتعرف من بين النشيج، والبكاء الأليم بأن الجثة لأبيها، وإن هذه التي أمامها كانت حتى الأمس كيان والدها الحسين الذي طالما رمت بنفسها في أحضانه. فترمي" سكينة" لاشعوريا بنفسها على الجثة. ولا يقوى الجمع على البكاء وقتها. بينما يبكي الجمع المنصت لرواية "الكعبي" هنا، وقد تأثروا بقوة، وصدق التعبير المنقول عن شاهد عيان.

وعندما يصف "الكعبي" منظر جمع الرؤوس، ومنها رأس الحسين "رض" لكي تأخذ إلى دار "عبيد الله بن زياد" حيث ساعدت القبائل في جمعها ترضية للحاكم. فسار الحراس بالجمع من آل البيت، مع الرؤوس، وقد دخلوا الكوفة، يصف "الكعبي" فيها بعضا من تعليقات المارة في الدروب، وردود الأفعال بينهم، وبين أهل الحسين "رض"، وبخاصة خطبة "علي ابن الحسين" في جمع من الناس، يعيرهم فيها بتخاذلهم، وجبنهم. كذلك ما جاء في كلام "زينب"، وما جاء به من علم، ومعرفة، وخبرة في عديد من الأمور، فتروي عن مآثر أهلها، وما لانتسابها من أهمية، وكأن "الكعبي" هنا يذكر الناس بالتأريخ، ومن خلال استعادت الخطب بالذات من جهة. وبالمنزلة العلمية، والأخلاقية التي تربى عليها آل البيت من جهة ثانية. إضافة للتذكير بأن ضحايا ذلك العداء لم يكونوا إلا من أشرف البشر، ومن أفضل البيوت في المسلمين، وهم ذرية رسولهم محمد "ص".

وفي المقطع الخاص برواية "الكعبي" لخطبة "أم كلثوم بنت علي – رض" يصف تركيزها على تعيير أهل الكوفة بما فعلوه بمن استنصروهم، مما جعل الناس يضجون بالبكاء، والعويل، والثبور، حتى بكيت الرجال، بينما يسمع بكاء من جمهور "الكعبي" أيضا. وعندما يصف "الكعبي" مشهد إحضار رأس الحسين "رض" بين يدي "عبيد الله بن زياد" لكي يتشفى بها، يذكر "الكعبي" استياء الناس من هذا الموقف، وبخاصة ما يقوله على لسان "أنس بن مالك" الذي بكى قائلا: –

كان أشبه برسول الله.

وكان "أنس" مغروما بالوسمة. وكان إلى جانبه "زيد ابن الأرقم" صاحب رسول الله "ص"، وهو شيخ كبير. فلما رأى "ابن زياد" يضرب ثنايا رأس الحسين "رض" قال:

لا تغرب البسمة "يُسمع عويل، وبكاء من جمهور الكعبي"!!! هاتين الشفتين، فوالله الذي لا إله إلا غيره، لقد رأيت شفتي رسول الله "ص"، ما لا أحصي كثيرا يقبلهما، ثم انسحب باكيا.

ويروي "الكعبي" كيف يـُؤمر بنقل رأس الحسين "رض"، وأهله إلى الشام، مشيرا إلى رواية "ابن الجوزي" الذي يصف مراحل الوصول إلى الشام، وكيف حلـّت القافلة في منزل قرب دير "للنصارى"، وكان من عادة الحرّاس أن يـُخرجون الرؤوس في مكان استراحتهم من صناديقها ليلا، ويشكونها برؤوس الرماح. وكان في الدير راهب نصراني، استيقظ في الليل ليسأل لمن هذه الرأس التي رأى عليها نور. فعرف أنها لابن بنت الرسول "ص". فقايض الحرّاس بعشرة آلاف درهم حتى يبيتونها لديه، فقبلوا. فقام طوال الليل بتطييبها بالبخور، وهو يبكي.

وعندما يصل الركب إلى مشارف الشام، يشير "الكعبي" إلى رواية "سهل بن سعد الساعدي" الذي يصف كيف رأى الزينة على أبواب دمشق، فيستغرب لمظاهر العيد. لكنه عندما يعلم الخبر، يقول: -

يا للعجب أيهدى رأس الحسين، والناس يفرحون.

ويصف "الكعبي" ابتهاج "يزيد"، وارتجاله الأشعار، وهو يستقبل الرأس، ويفعل كما يفعل "عبيد الله بن زياد"، فيصرخ الجمع، وويبكي من يبكي فيهم. ويعترض "علي بن الحسين" الذي يكون مربوطا من رقبته، فيأمر "يزيد" بفكّ وثاقه في مشهد درامي حيث يروي "الكعبي" كيف كانت الدماء تسيل من رقبة "علي بن الحسين". يتبعها ببكائية غنائية حزينة. ثم يستشهد "الكعبي" بقول "ابن الأثير - في الكامل" في وصفه لرجل شامي يريد شراء "فاطمة بنت الحسين" على أنها جارية. وتتوالى الخطب في حضور "يزيد"، بينه وبين آل البيت. بينه وبين "زينب" من جهة، وبينه وبين "علي بن الحسين" من جهة أخرى. وأكثر الخطب بلاغة كانت خطبة "علي بن الحسين" الملقب ب"زين العابدين" في المسجد وهو يجادل بني أميـّة، ومنهم "يزيد بن معاوية" الحاكم. ولما شعر "يزيد" بخطورة الموقف، وبأن الناس يتحمسون لموقف آل البيت، وينتصرون للثكالى، خصوصا عندما فشل الخطيب الذي وجهه "يزيد" في محاججة "علي بن الحسين". بل إن عليا أفحم الخطيب إياه، وأسكته. حينذاك قرر "يزيد" إعادة السبايا إلى ديارهم في المدينة المنـّورة. كما أستجاب لما طلبوه. فأخذوا الرؤوس معهم، وساروا في طريقهم إلى المدينة المنـّورة، وعندما

دخلوا العراق مرّوا على قبر أبيهم "الحسين – رض" لكي يعيدوا الرأس إلى موضعها، وذلك بعد مرور أربعين يوما.

ويروي "الكعبي" نقلا عن "عطية العوري" ما صار من أمر "جابر ابن عبد الله الأنصاري" الذي جاء لزيارة قبر "الحسين – رض": – فلما دنا من شاطيء الفرات، اغتسل، ثم تأزر، وفتح صرة فيها "سُعد" ونثره على جسده، وتقدم إلى قبر "الحسين –رض" فغشي عليه. فلما رشه "عطية" بالماء أفاق، وأحس بأن من يدنوا من القبر رجل من آل البيت. وإذ بجواد قادم، فعرفوا أنه "علي بن الحسين" ورأس "الحسين –رض" معه، يتبعهما عيال "علي بن الحسين"، وبقية آل البيت.

فأقام "علي ابن الحسين" وبقية آل البيت مراسيم الدفن، وظلوا هناك ثلاثة أيام حتى رحلوا جميعا إلى المدينة المنوّرة.... ولما شارفوا في الوصول إليها، طلب "علي بن الحسين" من "بكر ابن مظلم" أن يسبقهم إلى المدينة، لكي ينعى أباه "الحسين – رض"، وعندما دخلوا، خرج كل من فيها، وبكى.

ويرتجل "الكعبي" هنا بكائية على لسان "زينب"، هي الختام ليصف ما معناه:–

أنها قالت بأنهن عدن إلى دار الحسين بلا رجال، ولا بنين. بينما كانوا قد خرجوا منها مجتمعين.

الإلهام والإحياء

وقد ألهمت هذه الأناشيد و"التعديد الحزين" والحركات الإيقاعية الجماعية من الفنانين المسرحيين، ممثلين أو مخرجين، وبخاصة من العراقيين لاستخلاص بعض رموز السيرة "الحسينية". خصوصا وإنها انعكست بدورها على طبيعة الفرد العربي وإنها وظهرت في مآتمه وتعازيه الاجتماعية أو في حالات حزنه. فأخذ هؤلاء يستخدمون بعض تأثيرات هذه السيرة، وبخاصة أداء الرواة للمسرحيات التي توظف الراوي فيها. استفاد الممثل والمخرج من طريقة عمل الراوي الحسيني، وليس غريبا تشبيه هذا الراوي بالممثل "البريختي" من قبل كثير من الباحثين والفنانين المسرحيين العرب، وبخاصة المسرحي العراقي "ابراهيم جلال" الذي يصف الشيخ "مصطفى متولي الشعراوي"، كمثال، للتشبيه بجلسة "عبد الزهرة الكعبي" وهو يجلس في حلقة ليفسر الأحاديث بالمعلم البريختي، ويقصد بذلك الممثل البريختي، حيث تتشابه جلستاهما. أما الممثل فقد استعان بتلوينات الراوي في أداه من جهة، وبإيقاعات وحركات ضرب الصدور واللطم القاسية في الحركات العامة، والتي تحتاج لظرف خاص، وحدث مشابه من جهة ثانية. وهذان لاحظناهما في غالب المسرحيات

العراقية التي تستدعي التراث، وبخاصة التراث العراقي منه. ابتدأها المخرجون وطوّرها الممثلون، ومنهم على سبيل المثال الممثل أزهر جواد من أبناء بلدة الراوي "عبد الزهرة الكعبي"، "طويريج". حيث قام بتقليد أسلوبه في الرواية عندما مثّل دور الراوي في مسرحية "السؤال" من تأليف "محي الدين زنكنة"، وإخراج جعفر علي، وتقديم فرقة مسرح اليوم العراقية لعام ١٩٧٣. كذلك ما يقوم به المخرج المسرحي العراقي المغترب "جواد الأسدي" في أعماله المسرحية، وبخاصة لوحة الخبز في مسرحية مغامرة رأس المملوك جابر، ولوحة الطوفان في مسرحية خيوط من فضة.

إن هذا الشواهد المكتوبة ذات الأفعال الحركية، والتي تجذرت في ضمير الأمة، لم يكن لها أن تستمر لولا ممارسة الرواة، والحكواتية، والقوالين الذين حملوها على عاتقهم، وتبنوها مصيرا وحرفة وفنا. اختلفت وسائلهم، وتنوعت اتجاهاتهم، تباينت درجات إجادتهم وحرصهم، وإخلاصهم. لكنهم بالتالي هم الواسطة التي نقلت هذا التراث إلى إذهان الأمة من جهة، فحملتها من جيل إلى آخر من جهة ثانية، وذلك أولا من خلال إيراث الرواة أبناءهم لهذه المهنة، وتوارث الذاكرة بين الجد والحفيد في المجتمع من جهة ثانية. ورغم أن بغض الرواة في السير والملاحم الدينية والاجتماعية أو الحكايات يفضلون الجلوس على الرغم مما يحتاجه دورهم في الرواية من مجال رحب لذلك. إلا أن بعضهم يعوض هذا النقص، بعدم قيامه بالحركة. من خلال فعل التلوين الصوتي. إلا أن الرواة والقوالين في جنس "الحلقة" قد بقوا مرتبطين بالناس من خلال توسطهم للجماعة، تماما كما يفعل الراوي المقاماتي في جنس المقامة. أما فعل المدّاح الجوال فهو في المحافظة على السير ونقله إياها من جيل لآخر، ومن وسط إلى غيره، عندما ينقلها إلى الناس في أية ساحة وضمن أية حلقة ولفترات وجيزة هي وقت أدائها اليومي. فقد ساعد المدّاح الجوّال. أو "القوّال" على بقاء السيرة كل هذه المدة. رغم اختلاف مستويات الأداء، ونوعية الإبداع لدى مختلف تفرعات فنون المداح في جنس "الحلقة". لأن المدّاحون كافة يعتبرون ناقلي السير، والملاحم الأمناء.

الخلاصة

من الدراسة نلاحظ ألآتي:

١ – إن كلا السيرتين حددتا أربعين يوما في القليل، للموعد المقرر سواء كان ذلك اليوم العاشر من عاشوراء. أو الجمعة السابعة "الحزينة". أما التسعة أيام من محرّم

بالنسبة للسيرة الحسينية. أو الجمع السبع بالنسبة للآلام، بحيث يصبح مجموع الأيام تسعة وأربعين. أو خمسين يوما بالنسبة لكليهما.

٢ – حدد يوم الصلب في الآلام بيوم الجمعة، بينما حدد اليوم العاشر من محرّم.

٣ – لا يبتعد يوم الجمعة الحزينة عن فصل الربيع ما بين شهري آذار/مارس– ونيسان/أبريل من العام. بينما يدور اليوم العاشر حول فصول السنة الميلادية، وأشهرها.

٤ – تكون الأربعين أو الخمسين يوما من الصوم قبل يوم الجمعة الحزينة، ولا تتأخر بعده الأ بيوم واحد يوم سبت النور. بينما يكون الحداد بعد اليوم العاشر "عاشوراء" بأربعين يوما.

٥ – حددت أيام التعازي بعشرة أيام "عشرية" لأنها تتبع السنة السنة الهجرية "القمرية"، لهذا لا يكون موعدها ثابتا في السنة الدورية. بينما حددت مواعيد، وتتابع الجمع أسبوعيا، وبخاصة أسبوع الآلام، لكنها تتبع السنة الغريغورية "الميلادية"، لهذا يختلف موعد الصوم الكبير، وعيد القيامة في توقيته بين سنة، وأخرى صعودا، ونزولا، ففي الوقت الذي يتأخر موعد الصوم، وعيد القيامة بخاصة، يقال أن العيد هذه السنة نازلا، والعكس صحيح.

٦ – يتحدد نوع المأكل في كلا الطقسين، ففي الصوم الكبير يصل لدى بعض المكفرين إلى الإنقطاع لنصف يوم عن الأكل، لأنه الصوم في الغالب لا يتجاوز الإنقطاع عن الزفرين. أما في طقوس السيرة الحسينية فيتنوع ألوانه، نكهة، ومذاقا. لكنها جميعا تتسم بالمذاق الحلو.

٧ – يعَم الفرح بعد اليوم الثالث للصلب، لأن المسيح قد قام قاهرا بذلك أعداءه الحقيقين، سواء الذين ساهموا بصلبه. أو هؤلاء الذين جاء ليخلص البشر من شرورهم. أم بذلك التصالح بين الطبيعتين البشرية، والإلهية الذي أثبته بقيامته. أما في التعازي الحسينية فإن موعد الحزن لمدة أربعين يوما يبدأ فعلا بعد اليوم العاشر، يوم "عاشوراء".

٨ – كلا السيرتين تحددان ذكرى الأربعين لحدث مشهود. ففي الجمعة الحزينة يكون موعدا للصعود. أما في التعازي فإنه موعد لجمع الرأس بالجسد، واكمال مراسيم الدفن.

٩ – تؤدى في كلا السيرتين الأدوار تشخيصيا. ففي الجمعة الحزينة تتولى مجموعة الشمامسة مع الكاهن الدوران حول مراحل درب الصليب. ويمثل نخبة مختارة من الشعب رسل المسيح يوم خميس الفصح الذي يسمى أيضا خميس التغسيل. أما في التعازي، فالتشبيه يتم على صعيدين: الأول – تمثيل أهم الأدوار وتشخيص المسموح

منها. الثاني – ويبقى الدور الآخر في الجانب الذي يختص بالرواية، والذي لا يستطيع التشخيص إيفاءه حقه أداء، وتعبيرا قد لا يوصل المعنى المطلوب بموضوعية كاملة.
١٠ – يكون وصف الأعداء وتشخيصهم، في كلا السيرتين متركز على إبراز الصفات السيئة، بينما يحدث العكس بالنسبة للضحايا، والمضحى بهم.
١١ – ينذر الناس في كلا السيرتين النذور، وبخاصة السيدات لأطفالهن. شمعة بطول الطفل في أحد الشعانين، من أحداث أسبوع الآلام في الجمعة الحزينة. وجرح صغير في رأس طفل في اليوم العاشر من التعازي.
وعموما فكلا السيرتين يجمعهما ذلك الهاجس المشرقي العربي المرهف. وذلك التعلّق بالقيم المثالية التي تنحو لتخليص البشرية من شرورها، وأشرارها. هي على العموم جزء من تتكوين الطبيعة المشرقية والعربية بالذات لا يختلف فيها إلا المعتقد، والتوجه الخاصين.

للبحث صلة.

المراجع

- جان دوفينيو (Jean Duvignaud) سسيولوجية المسرح (*Sociologie du Théatre*). ترجمة حافظ الجمالي. منشورات وزارة الإرشاد القومي السورية. ١٩٦٤.
- محمد عزيزة، الإسلام والمسرح، ترجمة الدكتور رفيق الصبّان – دار العيون – ط ١، الغرب.
- هاني فحص، المسرح الإسلامي، دار صادر، بيروت.
- الخطيب ملا علي البحراني، الجمرات الودية. الجزء الأول. منشورات مكتبة العلوم العامة، ط ٦ لعام ١٩٨٧، المنامة، البحرين.
- فاطمة بنت الحاج جاسم ابراهيم آل اسماعيل، الدموع المؤمنة. الجزء الأول، ط ٢ لعام ١٩٨٨، المطبعة الشرقية، البحرين. لم يسبق لهذا الكتاب أن حَلل مسرحيا هو الآخر.
- فائز الزبيدي، السدرة تزهر مرتين. دار صادر، بيروت، ١٩٨٨.